

ونجد القرآن إذا تحدث بلسان النملة كانت كلماتها كأنها تحكي صوت النملة، وإذا تكلم بلسان الهدهد كان جرس الكلمات وموسيقاها يحكي صوت الهدهد.

فقد قال القرآن على لسان الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (النمل ٢٢) وهي على وزن صوت الهدهد: كوكو، كوكو، كوكوك.

فالصوت في القرآن يؤدي غرضه كاملاً غير منقوص. إن الإبداع الصوتي في القرآن وانتقاء الكلمات بجرسها ونغمها له أكبر الأثر في هدايته البالغة، ونظمه العجيب، وإعجازه الرائع، وتأثيره في قلوب سامعيه من العرب والعجم.

وما من أعجمي يسمع ترتيل القرآن فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رقة للشجي والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتره من ذلك شيء إذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشعر وقد لا يجد في الموسيقى ضرباً أسخف منها لمكان اختلاف الأذواق، وما نجد ملحداً لا يؤمن بالله إلا هو مؤمن بهذا الإعجاز في كتابه، حين يسمعه مرتلاً من صوت جميل كأن النبوة حيثئذ تلامسه.

٤- بلاغة القرآن

الحد الصحيح للبلاغة في الكلام هو أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل، والوجدان من النفس، ولم يعرف في تاريخ البشر أن كلاماً قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول والقلوب، فهو الذي قلب طباع الأمة العربية، وحولها عن عقائدها وتقاليدها، وصرفها عن عاداتها وعاداتها وصدف بها عن أثرها وثاراتها، وبدلها بأمتها حكمة وعلماً، وبجاهليتها أدباً رائعاً، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها، وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها.

ولم تكن هذه البلاغة خفية على أهل مكة، فهم خبراء الفصاحة وفرسان البيان، وكان بعضهم يسجد عند سماع القرآن ويقول سجدة لبلاغة هذا الكلام.

ولكن غلبت عليهم العصبية، وأعمتهم حمية الجاهلية، عن اتباع الحق رغم وضوحه، وعن السير في ركب الإيمان رغم اعترافهم بصدقه.